الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي بعابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٣٩٠ / ٥٦٢٦٩

العدد ٣٥٤ — الثلاثاء ٣ من ذي القعدة سنة ١٣٦٤ — ٩ من أكتوبر سنة ١٩٤٥ — السنة السابعة

فهرس العدد

غفلة مريضة

قرأت في بعض الصحف «أن أغا خان زعيم الإسماعيلية الخوجة — وعددهم يزيد على عشرة ملايين — سيهدي إليه أتباعه في عيده الماسي وزنه ماساً، ويقدر الماس الذي يعادل وزنه ٢٢٥٠٠٠ قيراط — وقد بدأ فعلا جمعها، وقد أهدي إليه في عيده الذهبي وزنه ذهبا فبلغ ٢٥٠٠٠٠ جنيه ذهبا».

فقلت: أيظل المسلمون في تعظيم هذه أبدا؟ إن الإسلام في جوهره لا يقدس أحدا، ويحارب عبادة كل حجر وكل وثن وكل صنم وكل حيوان وكل إنسان، وشعاره الدائم «لا إله إلا الله» ومعناها البسيط أنه هو وحده الذي يعبد والذي يقدس والذي يرجى والذي يخاف.

فما بال المسلمين فقدوا هذا المعنى فقدسوا الأشخاص بمعونتهم، ويحجون إليهم ويقدمون لهم الهدايا كما تقدم القرابين؟!

ألا يدرون فيم تصرف هذه الأموال الطائلة التي يجمعونها من البائس الفقير الذي لا يجد ما يسد قوته وما يستر جسمه؟ إنها تصرف في خيل السباق وفي ترف النعيم وفي زواجه كل يوم بسيدة أجنبية وفي غير ذلك من وجوه السرف؟ أليست عارة شنيعة؟ ترى أن هذا المال يجمع من محتاجه ليصرف في هذه الوجوه، فغفلة غريبة مريضة.

ولم هذا التقديس كله؟ ولم هذه الحفاوة كلها؟ لم يكن ذلك من كفاية ممتازة، ولا عبقرية خارقة للعادة، ولا قيام بالإصلاح عظيم، ولكن وراثة دينية ورثها، وسلطة روحية نقلت من الآباء إلى الأبناء حتى وصلت إليه.

أفيقوا أيها المسلمون.

ليس هذا الأمر مقصوراً على الإسماعيلية دون غيرهم

ولا على الشيعة دون السنيين ، فالنقلة عامة والجهل عميم والسخافة فاشية وعبادة الأشخاص في كل منحى .

ما هذه صناديق النذور التي يطلها الإثر عند كل ضريح كبير كالسيد البدوي والإمام الشافعي والسيدة زينب وسيدنا الحسين وغيرها من الأضرحة ؟ إن كل صندوق من هذه توضع فيها مئات الجنيهات بل الآلاف أحياناً كل عام .

أتدرون من الذي يدفعها ومن الذي ينعم بها ؟ يدفعها الفلاح المسكين يحرم منها نفسه وأولاده من غذائهم الضروري وملبسهم الذي لابد منه ، ويدفعها من ثمن بقرة يبيعها وهو في أشد الحاجة إليها في زراعته ليفي بنذر نذره إن شفى ابنه من مرض أو نجى من تهمة أو نحو ذلك ، مما لا دخل للسيد البدوي وسيدنا الحسين فيه .

ويأخذها الأغنياء المترفون من مشايخ هذه المساجد ومن إليهم ممن ليسوا في حاجة إليها [illegible] الأملاك والضياع ، وكل حين [illegible] الصناديق تؤلف وزارة الأوقاف لها لجاناً [illegible] ولو أنها حصلت بذلك باباً من أبواب الفساد .

وما هذه مشيخة الصوفية التي تتوارث كما ورث أبا علي مشيخته ؟ فهل العلم يتوارث وهل الروح يتوارث ؟ إنا نرى أبوه عالم يلد أجهل جاهل ، وصالحاً كبيراً يلد فاسقاً كبيراً ، ومعرقاً في الفسق يلد معرقاً في الصلاح . والعلم والذكاء والغباء والصلاح والفساد « تذكرة شخصية » لا يمكن أن تتوارث ، وقد منع الأنبياء من أن يورثوا حتى في أموالهم وجاء الحديث « نحن معاشر الأنبياء لا نورث — ما تركنا صدقة » .

فالسيادة الروحية كالسيادة العقلية لا يصح أن يكون كل مصدرها الوراثة ، بل لا يصح أن يكون أحد مصادرها الوراثة . هل رأيت أحداً اختير أستاذاً في جامعة أو في مدرسة عالية أو غير عالية لأن أباه كان يشغل هذا المنصب ؟ فكيف بالروح وأمرها أصعب ونيل الدرجة الممتازة فيها أشق و« الله أعلم حيث يجعل رسالته » وقد يكون شريف النسب لا يساوي عند الله شيئاً ، وقد يكون وضيع النسب وهو عند الله في مكان مكين ؛ هذه بديهيات تطيح بمشايخ الطرق وبأنا عنا وبكل من نال منصباً بالوراثة لا بالكفاية .

قد كان الناس إلى عهد قريب ينظرون إلى المناصب نظرة شخصية ، فإذا مات موظف جهدوا في أن يحل ابنه مكانه حرصاً على أن يظل « البيت مفتوحاً » ونحو ذلك من الاعتبارات ، فلما عقلوا وفهموا أن المنصب عمل يؤدى ولابد لمن يؤديه أن يكون كفؤاً له زالت النظرة الشخصية وزال توظيف الابن مكان أبيه لمجرد الأبوة والبنوة ، وروعيت المصلحة العامة لا المنفعة الشخصية . فماذا تبقى هذه البقية من مناصب تتوارث من غير نظر إلى الكفاية ؟

[illegible] إنما يقوم بدينه وبما يقوم به من [illegible] وهو لم يكن فيه هذه الصفات فلا يصلح — مطلقاً — أن يلي هذا المنصب ولو كان أقرب الأقرباء . والله يقول لنوح النبي في ابنه غير المؤمن : « إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح » . والرسول يقول لعائشة زوجه ولفاطمة ابنته « إني لا أغني عنك من الله شيئاً » فما بال هؤلاء يعتزون بنسبهم النبيه ويرون استحقاقهم المناصب بنسبهم لا بعلمهم والناس من غفلتهم يؤيدونهم في أغراضهم وشهواتهم !

هل كان النبي (ص) يختار لعمله أقاربه ؟ أو كان أبو بكر وعمر وعلي يختارون لعملهم أقارب النبي ؟ ألم يجمع علي نفسه قريبه عبد الله بن عباس ويغضب من إلى من أهله مراعاة للكفاية وحدها ؟ .

عجيبة جداً هذه العاطفة الشيئة أن يحب المسلمون نبيهم فيحبوا كل ما يتصل به من أقاربه ومكانه وأصحابه كما يحب

إلى من يهمهم من أبناء مصر جميعاً :

حديث الزائدة الحمراء

لست أريد اليوم أن أتحدث عن الدول ولا عن الناس ولا عن النظم الاجتماعية فإني أحس الليل يجب إلى شيء من تأمل الحياة وما فيها من مغالطات ومن مظالم . ولقد قضيت أياماً أستعرض أجيال البشرية وأستقرئ حوادثها فما وجدت في كل تلك الأجيال سوى حقيقة ثابتة واحدة وهي أن الإنسان حيوان عجيب يحب نفسه حتى يرهق نفسه وهو زعم أنه يلتمس السعادة . لم أجد جيلاً من الأجيال رضي عن حظه ولم أجد فرداً من الأفراد ذهب من الدنيا وهو راض عما أصاب فيها . لقد كان سليمان [illegible] ملكاً عظيماً ، وبلغ من القوة والسلطان [illegible] النافلة التي تقل [illegible] ، ونال من [illegible] الوقت التصديق ، ولكنه لم يصدق في آخر الحياة [illegible]

شعوره إلا أن قال : الحياة باطل وإن كل ما فيها لا يزيد عن قبض الريح .

فلندع إذاً تلك المسائل الكبرى التي تتعلق بالدول والإنسان ولنضع اليوم مسألة صغيرة تشبه أن تكون أحجية من الأحاجي التي تضحك الأطفال . هناك زائدة حمراء ذات زائدة سوداء ، لا فائدة فيها ولا زينة منها ، وهي عبء في الصيف ولا تقي شيئاً في الشتاء ، ومع ذلك فهي موضع إكبار وتكريم لأننا جعلناها شعاراً ، وإن كانت قد أصبحت غير شعار ، ونحرص على التمسك بها في القول وإن كنا قد نبذناها نبذاً في العمل .

وأظن القارئ الذكي قد فهم من هذه الأحجية أن المقصود بهذا الوصف كله إنما هو ذلك اللباس الأحمر الذي [illegible] الناس في رؤوسهم إذا أرغموا على وضعه على الرؤوس [illegible] من الأسباب وهو الذي نسميه الطربوش .

[illegible] أن نشتق اسم ذلك الطربوش ، وأكبر [illegible] من مظهرين كفاءة أرباب الزمن [illegible] ، ولست أدري كذلك هل اسمه الأصلي

الباشق كل ما الشكل تحبيره ، ولكن لا يصح أن يتدخل هذا الحب في المصلحة العامة ولا في العدالة الاجتماعية ولا في المبادئ الأساسية الإسلامية . هل يسمح لي في شريعة العقل أن أولى قريباً لي أمنحه عملاً لا يصلح له ؟ الجواب « لا » فكذلك هنا « لا » .

إن من أسس الإسلام التقويم بالعمل لا بالنسب ، ووضعت تلك القاعدة الجليلة « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » من غير نظر إلى فاعل الخير وفاعل الشر . فهل يصح أن نهمل كل ذلك من أجل الحب ، والحبيب نفسه لا يرضى أن تهدر مبادئه ؟

لقد ذهب زمان التملق وأصبح الناس يقدرون الرجل بعمله ، فيقولون رياسة حكومتنا لهم ابن الصانع وابن العامل ، ويتعجبون من العمل ابن العظيم وابن الشريف إذا كان لا يصلح للمنصب ، والناس يقدمون الانتخابات بعملهم ومواهبهم لا بنسبهم ، ومنتخبوهم ينتخبونهم على هذا الأساس لا على أي أساس آخر .

أفيصح للمصريين في مثل هذا الزمان أن يتملقوا زعماءهم وينفقوا أموالهم ويطأطئوا رؤوسهم ويسندوا أعمالهم إلى من ليس يستحق لمجرد نسبه ؟

لست أقصد بهذا النقد مذهباً معيناً ولا طائفة خاصة ، فهذا الشر واقع في كل الطوائف ، والشكلة عامة ، فهل يفيقون في زمن لا تكفي فيه الإفاقة بل لا بد من العمل الجدي والسعي الجدي للعيش الصالح في هذا العالم ؟

أحمد أمين

الطربوش بالطاء أم هو الشربوش بالشين أو هو السربوش بالسين. ومهما يكن من أمره، فإنى أعرف أن فى أحياء القاهرة القديمة حياً كان اسمه حى الشرابشيين وكانت تصنع فيه الشرابيش وهى قلانس مقورة من الجوخ وكانت تزركش بالقصب الذهبى اللون وتتخذها بعض سلاطين مصر زينة لجنودهم على ما اعتاده السلاطين من التحرق فى اختيار ملابس جنودهم إذ كانوا يحرصون على أن يكون مظهرهم فى المواكب خلاباً رائعاً يأخذ بعقول الشعب المصرى. والشعب المصرى شعب محب للجمال وروعة الألوان الزاهية البراقة، فكان السلاطين يحرصون على أن تكون ملابس جنودهم زاهية لامعة جميلة الألوان حتى يعجب أهل مصر فلا يفكرون فى المظالم الكبيرة التى كانت تقع عليهم، لأن المناظر الخلابة فى مواكب السلاطين كانت تنسيهم [illegible] جميعاً. ولست أدرى إذا كان السلاطين قد قصدوا ذلك أو لم يقصدوه، ولكن المصريين [illegible] بأزياء تلك الجنود ويقلدونها وكانوا [illegible] شرابيش تشبه شرابيش الجنود و[illegible] الذهبى اللامع ويتأنقون فى لبسها والتباهى بها.

ولكن تلك الشرابيش كانت كما قدمنا جميلة المنظر لامعة براقة، فهى لا تشبه فى شىء تلك الطرابيش الحديثة الحمراء التى تصنع من الصوف الخشن، ولا تحمل طرازاً وكشكشة من قصب ذهبى، بل يكتفى صانعها بأن يجعل لها زائدة أخرى ذات لون أسود لا يلمع ولا يبرق، وهى عبارة عن خيوط مفتولة كالحبال خشنة الملمس غليظة القوام.

فالطربوش إذاً لا يصلح للزينة فى لونه ولا فى صنعته، وأما شكله فمعروف للجميع وهو يشبه الأسطوانة، وقد يميل من أعلى قليلاً حتى يصير مثل القمع المقلوب. وهو مجوف مستطيل لو سقطت عليه كرة صغيرة لدكته دكاً. وهذا هو السبب فى أن تلاميذ المدارس قد تركوه فى هذه الأيام وصاروا لا يلبسونه أبداً، ولهم العذر فى ذلك ولا إثم عليهم.

مثلنا منهم؛ فلأن الطربوش لباس لا جمال فيه ولا يصلح للزينة ولا يجمل من صورة الإنسان. وأما عذر الآباء فهو أن الطربوش هش سريع التأثر، مستقيم فتحاله سلب الجدار حتى إذا أصابته ضربة خفيفة تثنى وتحطم وتغيرت قواه وتشوهت صورة الأسطوانية الهندسية فأصبحت لا هندسة لها. ومما يزيد الأمر خطورة أن فى داخل تلك الأسطوانة الحمراء أسطوانة أخرى بيضاء هشة قشة تتخذ من سعف النخل الأبيض، والتى تساعد الطربوش الأحمر على الانتصاب والظهور بمظهر الصلابة الخداعة. ولقد قيل إن قدماء المصريين فى عهودهم القديمة كانوا يلبسون قلانس طوالاً يجعلون لها من الداخل أعواداً من الخشب الغليظ صلبة ويصنعونها بالطول الآتى حتى لقد قيل إنها كانت تبلغ أحياناً نصف [illegible] ولا شك فى أنها كانت [illegible] الشكل ولا سيما أنها كانت سوداء اللون [illegible] فى إيثار اللون الأسود — [illegible]

[illegible] إلى قلانس [illegible] فلننظر إلى طربوش مصر وقد كنا نقول عنه إنه مبطن من داخله بخوصة رقيقة تساعده على اتخاذ مظهر الصلابة مع أنها خوصة ضعيفة إذا اتكل عليها الطربوش لم تخدمه ولم تغن عنه شيئاً، فهى مثل الرفيق الذى يتخلى عن الإنسان عند الشدائد ولا يشد أزره إذا صدمه صادم فى الحياة.

والآباء لذا كلهم لا يحبون تلك الطرابيش لأنها تشترى فى أول العام بثمن غال ثم لا تلبث بعد بضعة أيام أن تعود إليهم مهشمة مشوهة لا تحتمل إصلاحاً ولا رفعاً ولا رتواً. وهكذا يلجأ الأبناء بالتخلص منها لقبح شكلها، ويلجأ الآباء بالموافقة على ذلك لما أصابهم من الخسارة المالية فيها. وكان مما زهد الآباء فيها أن الأبناء لا يتطرون على طرابيشهم حين تسقط عليها الكرة فتحطمها، بل يتخذونها كرة يلعبون بها إذا أراد بعضهم أن يعبث ببعض. فإن

الظريف الخبيث إذا أراد أن يعبث بصاحب له خطف طربوشه وجعله كالكرة فدفعه ووكله وخبطه بقدمه فيثب صاحبه ورائه التحية عليها ، فاذا بالطربوشين وقد أصبحا قطعتين لا شكل لها . والنتيجة على كل حال لا تسبب إلا الآباء المساكين ، فلهم العذر إذا كانوا يشجعون أبناءهم على الذهاب إلى مدارسهم ورؤوسهم عارية .

وللمصريين عادة ظريفة في معاملة طرابيشهم بالخشونة ، فهم إذا غضبوا خلعوا الطرابيش ورموا بها على الأرض ، وإذا فرحوا خلعوا الطرابيش وقذفوا بها إلى السماء ، وإذا طربوا لغناء مغن أو مغنية خلعوا الطرابيش وقذفوا بها نحو المغني أو المغنية ، وإذا أراد أحدهم التشكيك بأمر كبس بيده طربوش من أراد التشكيك له فخلعه وأزاله إلى حذاء أذني صاحبه وهكذا . ولست أدري مع كل هذا لم يصرخ المصريون احتجاجاً على من يريد أن يحملهم على خلع طرابيشهم ، مع أنهم في كل أحوالهم لا يتمسكون بها ، وهم يزعمون أن الطربوش لباسهم الوطني ... وما لهم إلا بصلة ضئيلة وهي تلك الطربوشة القديمة التي ... وحتى هذه كانت لا تصنع إلا من خوص أرز ينبت في بلاد اليابان وما إليها . ولست أدري كذلك لم يعد لباساً وطنياً وقد لبس الجنود (الكلاكيت) والقاووقية وما إليها من أنواع الأغطية . ولقد تأملت هذه الأغطية الجديدة فوجدتها أوجه وأليق وأقرب إلى أن تكون من لباس الأبابي .

فإذا كان الأبناء لا يلبسون طربوشاً وإذا كان الجنود لا يلبسون طربوشاً فلم يبق إلا الكبار المتمسكون بأذيال القرون ، وهؤلاء معذورون إذا كانوا لا يعنيفون بالطربوش دوماً ؛ لأن لونه الأحمر جدير بأن يكسبهم شعاعاً من الحمرة إذا انعكس على الوجوه أكسبها بعض رونق الشباب .

ولقد فكرت في أنواع أغطية الرأس وأيها أجدر أن يكون شعاراً وطنياً فوجدت أن أحق الأغطية بأن يدعى ممثل الوطن هو اللبدة أو الطاقية ، وعلى تلك اللبدة إذا لف عليها ثوب أبيض كالعمامة . وأما الطربوش فلم يكن في يوم من الأيام سوى دخيل اقتصر لبسه على طائفة تدعى لنفسها السيادة ثم قلدها الناس شيئاً فشيئاً في لبسه حتى صار الطربوش غطاء رأس الطبقة المثقفة في يوم من الأيام .

ولكنه اليوم قد طار عن أكثر الرؤوس ، ثم قد طارت به الرؤوس جميعاً منذ أدركت أنه يزيد الحر حراً في الصيف ولا يشرب عرقاً ولا يحجب وهجاً ، وأما في الشتاء فهو في حاجة إلى الحماية من قطرات الماء إذا نزل المطر وهو لا يكسب الرأس دفئاً إذا اشتد البرد .

فلست والله أدري بعد ذلك ما الذي يجعلنا نتمسك بهذه الزائدة الحمراء ذات الزائدة السوداء ! وكان يقال لنا إن الأمر أن نتشبه بالترك في لباس رأسهم ولكن جنودنا ... القلاقس وانتهوا من ذلك منذ حين فلم يختلط الأمر على أحد ولم يشتبه أحد في جندي مصري أنه جندي ... باطلة لأننا أصحاب جلود مصرية ولو ... رؤوسنا ذات القلانس المجوية .

ثم ما الذي يضيرنا إذا سرنا في ملابس الأمريكان أو الإنجليز !! ألم نخلع علينا كسوة مثل كسوة الإنجليز والأمريكان ولنستر أجسام شعبنا كما تستر أجسام الشعوب ذات القلانس غير الحمراء .

على أن الأمر لا يدعو إلى جدل ولا إلى خصام . فإذا كنا لا نريد أن نلبس القبعة خوفاً من أن نتشبه الفرنجة حتى لا نتهم بأن لنا مدنية كمدنيتهم أو علماً كعلمهم أو فناً كفنهم أو قوة كقوتهم — إذا كنا لا نريد أن يختلط الأمر على أحد فيحسبنا فرنجة مع أننا لسنا فرنجة فليكن ، والأمر بعد ذلك بسيط سهل هين . والسير برؤوس عارية حتى نتميز بين الشعوب بأننا المصريون أصحاب الرؤوس العارية .

محمد فريد أبو حديد

صور قضائية:

طيش ساعة — وخيبة عمر!

حدثني صاحبي قال:

كنا نزور أحد السجون العامة مما تحتفظ فيه الحكومة بالقتلة وقطاع الطرق وكبار الأشقياء — فرأينا بين جدرانه عجبا وسمعنا من أحاديث أهله عجبا. وبينا نحن في طريقنا إلى باب الخروج بعد انتهاء الزيارة إذا نحن برتل من المسجونين يقبل نحو السجن وسط حراسة المدججين بالسلاح بعد أن فرغت نوبته في العمل بين أحجار الجبل القريب من السجن. فوقفنا جانبا نستقبل هؤلاء النزلاء حتى لا يكون قد فاتنا من أمر ذلك السجن شيء في زيارتنا تلك..

وأقبلوا علينا وهم يرسفون في … صفا. وقد بدت عليهم آثار التعب والإعياء من … الشاق الطويل — وكان الجو حارا لافحا. وكان عمال السجن قد رشوا ساحته بالماء رشا ثقيلا لعل ذلك يخفف من حدة الحر. ووقف الحراس بالباب وشرع المسجونون يدخلون واحداً واحداً. وبينا كان أحدهم يجتاز عتبة هذا الباب انزلقت قدمه في الوحل الذي أحدثه ذلك الرش الثقيل. فاختل توازن جسمه الضخم. وأخذ يميل ويخبط بذراعيه في الهواء محاولا أن يسترد توازنه. ولم يطل ذلك شيئا بطبيعة الحال عن الوصول إلى النتيجة المحتومة. فأبصرناه وقد انتهى تخبطه إلى غايته. وتساقط جسمه أمامنا مرتميا في الوحل.

وما راعنا في هذا الموقف الذي يدعو إلى الرثاء والعطف إلا أن نرى أحد الحراس الغلاظ الشداد يهال على هذا الرجل التعس ضربا بسوطه يستحثه على النهوض كما يفعل الحوذي الجاهل بحماره إذا هو كبا — كأنما قد ارتكب الرجل إثما جديدا يستحق من أجله هذا العذاب. أو كأن ما حدث منه إنما حدث عن عمد بقصد الإضرار بالسجن أو الإخلال بهيبة رجاله الأجلاء. أو كأنما كان ضحية الحادث شيء آخر غير ذراعيه المرتعشتين وجسده المرضوض!..

وقام الرجل في ذلة وانكسار لم يرفع بصره إلى من ضربه. وإنما اتجه إلى الطين العالق بثوبه ينحيه بكفيه، كأن اهتمامه بهذه الحلة الأميرية وخوفه عليها كان أشد من اهتمامه ببدنه وأكثر من خوفه على أعضائه!..

* * *

وكان على عمال السجن أن يحصوا وأن يرصدوا وأن يفتشوا قبل أن يسمحوا لهذه (الدفعة) بأن تأوي إلى … وأحسست رغبة ملحة تدفعني إلى أن أتصل بهذا المسجون التعس لأتحدث إليه قليلا كما فعلت مع زملائه … من نزلاء السجن.

وسنحت لي الفرصة أثناء قيام عمال السجن بإجراءاتهم في الإحصاء والرصد والتفتيش فتقدمت إليه وسألته عن اسمه وعن بلده. واستأنس الرجل إلى ما لمح في حديثي من أمارات العطف عليه. فأجابني عما سألته فيه. ثم تدرجت معه إلى السؤال عن جنايته التي انتهت به إلى هذا السجن. فأجابني إجابة مختصرة زادت فضولي إذ قال:

— لقد أردت أن أكون «رجلا» عشر دقائق. فعشت «امرأة»(١) عشرين سنة!

قلت له:

— إني رأيت بنفسي الساعة صورة من صور حياة

---

(١) أعتذر إلى سيداتي من إيراد هذه العبارة كما لفظها صاحبها وإنه قصد أن يقول: إنه عاش «ذليلا» عشرين سنة. على أني بعد هذا التفسير لا أجد مبررا للاعتذار. فإن الواقع يكذب هذا الزعم. والمرأة اليوم لا تعد على كل حال ذلك المخلوق الذي يصح أن تعد حياته رمزا للذلة والهوان.

« الرذلة » التي تقول إنك شبعتها . فحدثني عن المقالب التي أردت أن تجنبها ربيبة الرجال !

قال :

كان والدي رجلا كريما وقورا كبير السن . وكان شيخا للبلدة التي نعيش فيها . وكنت أسير إلى جانبه ذات يوم في بلدتنا . وكنت إذ ذاك شابا لا أجاوز العشرين من عمري ، وعلاني غرور آمال الشباب الواسعة . ويملؤني دم شباب الصبا . ورأيت رجلا فظا من أهل بلدتنا يتقدم إلى أبي فيستوقفه ويتحدث إليه حديثا في شأن من الشئون لم أفهمه . ولكني فهمت من ظاهر الحديث أن والدي يحكم من كرسيه قام بعمل إداري لم يرض عنه ذلك الرجل تمام الرضاء وأنه لذلك يعتب عليه — ولكن ما لبث الحديث بين الرجلين أن تطور بسرعة إلى مشادة في الكلام أعقبها تماسك . وتطاول ذلك الرجل الجريء على والدي فرأيته يمسك بتلابيبه ويهزه ... ورأيته يترنح في قبضته وقد تحسر ... ورأيت عمامته تتحدر من رأسه إلى الأرض ... الرجل الوقح بقبضته . ثم نظر إلى والدي فرآه بين يديه شيخا صغيرا لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا . فرسله متعففا عن المضي في التعدي عليه أو ضربه . وجمع والدي ما انتثر من أمره ، ويصلح ما تكشف من ثيابه وهو يهدد بتبليغ « النقطة » ويقول « عيشوا شوفوا » ، وبعد يتعلم الناس كيف يقفون عند حدهم . وكيف يجب عليهم أن يحترموا من هم أكبر منهم ... ومثل هذا الكلام الذي لم أجد له أي أثر في نفس ذلك المعتدي الأثيم ، اللهم إلا أن يكون زيادة إحساسه بقوته وقلة حيلة والدي في أمره .

وكنت شابا غرا سلا أمعنت في كنف والدي وأنعم باحترام الناس له ولأهل بيته . ولم يكن يخطر ببالي أن من كان في مثل مقامه وسنه يمكن أن يتعرض لمثل هذا التعدي الشائن . وفكرت في كل ما يمكن أن تنتهي إليه تلك الإهانات والتي التي عدد بها فوجدت أن شيئا منها لا يمكن أن يشفي نفسي . وأن هذه الإهانة ستظل عالقة بوالدي طول حياته — وبعد مماته أيضا . وخيل إلي وهي أني سكتت لتصحيح هذا الموقف . وأن علي أن أغسل هذه الإهانة لأعيش مرفوع الرأس في بلدي . وبالاختصار أحببت أن أكون .. « رجلا » ! ولم يقتضيني ما اقتضت النية عليه إلا « نمش وقالي » — ذهبت بها إلى دارنا فحملت مسدسا كنت أعرف أن أبي يحفظه في خزانته وعدت من حيث لم يشعر بي أحد فأفرغت مسدس أبي في صدر خصمه على مشهد من جميع الناس — ولم يعد بي تفكيري إلى أبعد من وصولي إلى هذه النتيجة . وهي أن أرى هذا الكلب الذي يقويه بقوته صرعا تحت أقدامي . فمددت رجلي إلى ... كل ذلك والناس مسحورون ... أمامهم . ولم تمتد إلى يد أحد منهم كأنما كانوا ... مسرح — وكأن الذي يحدث ... مشقة واقعة . ولكن هذه السكرة ... عاملها عن وعي الجميع . فبدأت أنا أفطن لما حدث ولما سيجره في أعقابه من الأحداث ، وبدأ الناس يفيقون من غشيتهم . وقبل أن تمتد إلى يد رأيتني أهم بالفرار والمسدس لا يزال في يدي ، ولكن بعض الحاضرين هم من خلق ولم يلبث أن تناوشني بعده . فوقفت لم أقوم ولم أهاجم . ورضخت من أمري عما كان ... وكان هذا آخر عهدي بحياة « الرجال » التي لم يطل أمرها أكثر من تلك الدقائق الخمس ... أما ما حدث بعد ذلك فهو الغالب في هذا « الطفل » — وطيه روايته — على نحو ما رأيت !

* * *

قال صاحبي :

— لقد فكرت في أمر ذلك الرجل طويلا بعد هذا الحديث . وعجبت كيف أن رعونة عابرة مثل هذه العاصفة

الرومانتيكية

ومذاهب الأثرة الحديثة (١)

وضع هذا المؤلف الشائق « جاك بارزن » ونشرت طبعته في الولايات المتحدة الأمريكية في أكتوبر عام ١٩٤٣ ، ثم أعيد طبعه مرتين في عام ١٩٤٤ .

والمؤلف هو أستاذ التاريخ بجامعة كولومبيا . ولما كان تخصصه في الثقافة والفكر الحديث ، فقد كانت الفرصة متاحة لديه ليصل دائرة بحثه بالفنون الجميلة ، والفلسفة والأفكار السياسية . وكتابه الذي نحن بصدد الحديث عنه — كبقية مؤلفاته التي سبقته — يعالج موضوعاً من أهم موضوعات العصر الحاضر — موضوع علاقة الفرد بالمجموع .

وفي عام ١٩٣٢ أصدر بارزن كتابه « الجنس الفرنسي » ، بحث في منشئه وعلاقاته السياسية . فكان هذا الكتاب الحلقة الأولى من سلسلة دراساته لمشاكل الاجتماعية ، والتي أتبعه بكتابه : الجنس ، دراسة على ضوء التضليل الحديث ، عام ١٩٣٧ . ثم كتاب : حرية الإنسان عام ١٩٣٩ ، وهكذا بدأ يصل إلى موضوع الثقافة الديمقراطية في العصر الحاضر ، وأتبعه بكتابه عن « داروين ، وماركس ، وفاجنر » عام ١٩٤١ فدرس فيه الحركات الثلاث الكبرى التي تهدد سلامة الفرد . ثم أصدر أخيراً كتابه الرومانتيكية والأثرة الحديثة ، يذهب فيه إلى أن الرومانتيكيين العظام كانت لهم نظرة إلى الحياة ، وإلى قيمة الفرد ، لها معناها حين نعالج المشاكل التي تعترضنا اليوم .

وبارزن بعد ذلك متواصل لبعض الصحف يبعث إليها بمقالاته في النقد . من هذه الصحف ، [illegible] ، هيرالد تريبون ، وغيرها .

* * *

ونحاول الآن البحث في صلب كتاب الرومانتيكية والأثرة الحديثة ، بعد ذكر شيئاً من التعريف بهذا الكتاب القيم .

إنه دراسة جديدة للحركة الرومانتيكية تشق أستار الشباب التي تحيط بالرومانتيكية وتجلو لنا كلاً من دورها الإنشائي الذي أدته في الماضي ، ومعناها الذي تسببه أهمالنا في حياتنا الحاضرة .

وما هي الرومانتيكية ؟ إنها تهاجم من ناحية على أنها كانت المشيرة بالعاطفية ، وتنقد من ناحية أخرى على أنها ليست شيئاً سوى البوهيمية المجردة ! ولعله لا توجد حركة أخرى عقلية أو فنية تعرضت لما تعرضت له الرومانتيكية من سوء الفهم لها بهذه الدرجة ! ولكن بارزن ينزع الستر عن هذا اللبس فيقول : إن الحقيقة الرومانتيكية تفرق منذ البداية بين القوة الإنسانية وبين

(١) Romanticism and the Modern Ego: أي الرومانتيكية والأنا العصرية

التي ثارت ثائرة بين والده وبين خطيبة تنتمي إلى هذه المواضع الثلاث :

— رجل يقضي عليه فيخرج من هذه الدنيا في غمضة عين ؟ ..

— ورجل آخر يقضي عليه في صورة أخرى ، فيبقى فوق سطح هذه الأرض حياً أشبه شيء بالأموات ، ويقضي العمر كله يرسف في الذل والهوان بسبب هفوة واحدة .. وهكذا يكون لا يعيش ساعة سعيداً في حياة عمره ؟ !

قلت :

— لقد أذكرتني بحادثة حديثاً آخر تتجلى فيه هذه النتيجة بصورة أوضح وأدعى إلى التفكير والتأمل . وما دام الشيء بالشيء يذكر — كما يقولون — فها أنا أقصه عليك . . .

(بقية الحديث في العدد القادم) ع . ح

نقد الكتب العربية

كتاب الشعرانى

إمام التصوف فى عصره

أصدرت دائرة المعارف الإسلامية حلقة جديدة من سلسلة « أعلام الإسلام » باسم « الشعرانى » للأستاذ الدكتور توفيق الطويل — وتفضل أستاذنا فريد أبو حديد فأتحف قراء الثقافة بمقال جميل عن عاصمة الشعرانى.

وأريد أن يأذن لى الأستاذ الجليل محمد فريد أبو حديد فأقول إن القارئ لكتاب الطويل — على ما به من سحر ومتعة — أخشى أن يخرج بشعور غريب عن الإمام الشعرانى، وهذا الشعور هو أنه رجل يوشك [illegible] أن يكون هادياً من جميع نواحيه. وهذا يحسن [illegible] الأستاذ الجليل فريد أبو حديد حيث يقول :

« إننا لانزال فى حاجة إلى [illegible]

لأنهم لا يزالون إلى اليوم فى مصر وفى غيرها من بلاد الإسلام علاقتها بركة حيناً ومهانة حيناً ويعيشون فيها القرون الطوال فى كل حين الخ ». ثم عاض الأستاذ فريد بعد ذلك فى سيرة الشعرانى حوضاً يوشك أن يكون يسيراً من جانب، كما يوشك أن يكون غالياً وليس من بعض كلمات الإعجاب من جانب آخر.

وقد يكون فى ذلك بعض الظلم للشعرانى وبعض الظلم المؤلف الذى ذهب كثيراً فى الكتابة عن الشعرانى — أقول : بعض الظلم المؤلف برغم العبارات الكثيرة التى دافعت فيها الأستاذ فريد تمهيده وصديقه الأستاذ توفيق وأثنى فيها على مجهوده.

[illegible] مع مؤلف الكتاب — على أن [illegible] القرون الوسطى ليس من هؤلاء [illegible] فريد بأنهم لا يعملون من الآفق [illegible] ومولد النبى ويعمدون إلى الاحتفاء [illegible] الأنقياء » الخ ..

والمتساهل حتى يتعلم، ويكون مثل الأمم القوية مع الأمم الضعيفة مثل الطبيب يعرض عليه المريض فيعالجه من غير نظر إلى جنسية المريض ودينه ومذهبه السياسى. هذه أمنية زعماء الإصلاح اليوم، فهم يرون أن المشاكل الحاضرة لا تحل إلا بهذا الطريق. وليس معنى هذا أن تتحلل أمة أمة من وطنيتها والقيام من كيانها وبذل أقصى الجهد لرفع شأنها، لأن كل أمة عضو فى الإنسانية ورقية كل عضو فى مصلحة الجسم كله؛ فأما أن يستقل عضو سائر الأعضاء ويتمتع بأحسن غذاء على حساب الأعضاء الأخرى فنظرة إلى الوطنية كاذبة هى التى جرت الويلات على العالم وستجره إلى خراب أعم إذا هو لم يفق من غشيته ولم يعدل نظرته.

إن العالم لاقى الأهوال من النظرات الضيقة أيام كان النظر الديني نظرة إلى القبيلة وأيام كان النظر نظرة تعصب دينى، وهو يلقى الأهوال اليوم لهذه النظرة الضيقة فى حدود الوطنية وحدود الأسواق التجارية المحروسة، وهو سائر لا محالة إلى النظرة الواسعة غير المحدودة وهى النظرة إلى الإنسانية العامة بالمعنى الذى ذكرنا.

وكل ما فى الأمر هو : هل الطفولة التى نزلت بالإنسان إلى الآن من أجل نظراته الضيقة كفت لوعظه وتأديبه أو هو لا يزال فى غفلته فيحتاج إلى عقاب أقوى وتأديب أعمق ؟

وأخيراً أشكرك أن هيأت لى فرصة توضيح رأيى والإبانة عن غرضى والسلام.

محمد أمين

أميل إلى عرضه — مع مؤلف الكتاب ومع جمهرة القراء — على أن يفهم القراء الإمام الشعراني بالصورة التي تتفق مع ما كان له من منزلة في عصره وما كان له من ميول علمية وروحية جعلت منه ذلك الرجل الممتاز الذي تبلورت فيه خصائص العصر الذي عاش فيه.

والحق أنك تتعب كثيراً حين تبحث عن رجل يمثل لك هذه الفترة التي تبدأ بنهاية حكم المماليك وتستمر إلى ما بعد الحكم العثماني، فلا تجد أصدق تمثيلاً لهذه الفترة من الشعراني.

ولقد بدأت صحبة المؤلف بالشعراني منذ سنوات كان المؤلف قد كتب فيها بحثاً عاماً عن التصوف في مصر في أوائل حكم العثمانيين، وكان المؤلف إذ ذاك مدفوعاً بحماسة الشباب يعرض للشعراني وأمثاله من المتصوفة [illegible] العجب حيناً وشيء من الاستخفاف حيناً آخر. ولعل الشعراني كان يعمل منذ ذلك الوقت [illegible] أو في عقله الباطن. ثم أعاد الكتابة [illegible] دائرة المعارف لمثلك فكشف عن الشعراني بأسلوب هادئ رزين حرص فيه كما يقول على أن يقتصر منه حقائق البحث العلمي وحرص فيه التزام الدقة العلمية وجمال التصوير الفني.

أعجبني من المؤلف أنه استطاع أن يوضح لنا بجلاء أن الشعراني كانت له دعوتان متضادتان: دعوة العلم الظاهر تتفق مع ميول الفقهاء والعلماء، ودعوة العلم الذوقي تتفق مع ميول الصوفية، والشعراني في كلتا الدعوتين لم يكن إلا ثمرة من ثمرات العصر ونتيجة من نتائجه. أما الدعوة الأولى فكانت خيراً على الإمام وخيراً على العصر الذي عاش فيه الإمام لأنها شحذت ميله إلى العلم ودعته إلى الاستزادة منه، حتى أصبح من كبار الفقهاء في مصر. ثم غلب عليه التصوف فلم يكن له بد من أن يتصوف على طريقة عصره، وينهج نهجه، وإن جاءت هذه الطريقة متعارضة كل التعارض مع دعوته إلى العلم الظاهر، فأصبح بذلك عالماً وصوفياً معاً.

والحق أيضاً أن القارئ يأخذه العجب من إمام عالم فقيه كالشعراني تتحرك في نفسه شهوة التصوف فيذهب من فوره إلى صوفي يوشك أن يكون أمياً هو (الخواص) فيلقي بنفسه بين يديه، ويرى أن سراجاً مطفأ عليه، فيقبل عليه الخواص ويكون أول ما يأمره به هو أن يبيع كتبه ويطلق العلم الظاهر، ويسرعان ما يعمل الشعراني ذلك ويصبح منذ يومئذ صوفياً في هذه الطريقة الجديدة. على أن هذه الطريقة الجديدة تاريخاً يعود الباحثون به إلى عهد الغزالي، حين أصبح للتصوف الإسلامي وجه يخالف ما كان عليه قبل عهد الغزالي، فأصبح تصوفاً قائماً على القلب دون العقل، ويتجه بالأمر إلى أن يكون عملاً لا علماً وتهذيباً لا تأملاً. ثم ظل [illegible] حتى هذا الطور الأخير من أطوار التصوف [illegible] المتصوفة منذ أوائل العصر العثماني [illegible] المتصوفة. وأتى الشعراني فاعتنق التصوف في هذه الصورة الأخيرة مستشهداً بالغزالي في دعوته إلى العلم الظاهر وهو علم الفقهاء بعد العلم الذوقي الذي هو علم المتصوفة، وإلى الإيمان لا الفلسفة هو الطريق إلى معرفة الله تعالى.

استطاع المؤلف أن يوضح لنا بجلاء هاتين الدعوتين المتعارضتين للشعراني، كما استطاع أيضاً أن يوضح لنا ناحية أخرى هي علاقته بالحكام، فأبان لنا أنه استخف أول أمره بهؤلاء حين كان لا يطمع في سيادة روحية عليهم، فكان يرفض هداياهم ويتعفف عن عطاياهم حتى نشأ من ذلك أن أقبل الحكام عليه وأخذوا يؤمنون به، ومنذ ذلك الوقت تحسنت العلاقات بينه وبينهم، ثم منذ ذلك الوقت وجدنا الشعراني يدعو إلى طاعتهم ويبالغ في الدعوة إلى طاعتهم حتى ولو كانوا ظلمة «باعتبارهم عقاباً سلطه الله على الشعب الظالم».

مدرسة برلمانية

[توفي أوي إنفر Anthachea [illegible] كتب الأدب . ولد في سنة ١٧٥٥ في [illegible] ، واشتغل [illegible] مع أساتذة [illegible] الخيال والأسلوب الأدبي [illegible] . وقد عاش [illegible] ، وهو [illegible] كتب في التربية والقانون والأدب . وأهم ما [illegible] . وفي [illegible] «مدرسة النواب» [illegible] و«قصة البيوتي» [illegible] ، وهو عالم عميق ، خفيف الروح ، ثاقب الفكرة ، [illegible]]

إرون ستيفن الذي احتفل في العام الماضي بمرور خمسة وعشرين عاماً عليه وهو مدرس ، كثيراً ما وقعت له حوادث عجيبة في غضون خدمته الطويلة ، وأعجب هذه الحوادث [illegible] وهي التي أراد فيها أن يحول مدرسته إلى مدرسة دستورية .

وقد خطر له هذا الخاطر من رأي [illegible] في نظره يجب أن تعد [illegible] بالحياة [illegible] من الناحية الخلقية . ويوم كان [illegible] لا إرادة فيها لغير الملك ، فله أن يأمر [illegible] كانت المدرسة ويجب أن تكون مؤسسة ملكية . أما الآن والرعية في الدولة تساهم في التشريع ، فقد حان الوقت لأن يعمل بالمدرسة مثل ذلك ، وأن تطبق عليها الدستور ، لأنه بهذا لا يستيقظ في الوطنيين الصغار شعورهم بالحق والواجب [illegible] ، بل يتسع كذلك [illegible] ، ويحقق نفوسهم التفكير في [illegible] الكبرى والحكم الغالب عليها . ولما كان من عادة إرون ستيفن أن يخرج كل خاطر له من حيز التفكير إلى حيز العمل ، أو بعبارة أخرى أن ينفذ ما رآه نظرياً صحيحاً وهاماً ، ويجربه عملياً ، فقد عمد مطمئناً ومن دون تردد إلى اقتراح قانون المدرسة ، تكون إجراءاته علنية شفوية ، ثم أعلنه رسمياً في مدرسته ، وأخيراً بعد أن تم انتخاب اللجنة وفقاً للنصوص ، أعلن دستورية الهيئة المدرسية .

وقد كان التهليل في المدرسة عظيماً كما يتصور — وسارت الأمور في البداية سيراً لا بأس به . ومن الصعب أن نحكم أكان المدرس أم كان التلاميذ أكثر اغتباطاً بهذه الحياة المدرسية الدستورية . ولم يخل درس من حادث يتدخل فيه البوليس — وليس المدرسة طبعاً — أو من حادث آخر شبيه بذلك ، فقد كانت المناقشة عما يرد في جدول الأعمال ، وكان التلاميذ بطبيعة الحال أشد سروراً بهذا الأخذ والرد منهم بالقراءة والكتابة والحساب — وذلك العمل الممل . وقد كان ستيفن رجلاً دقيقاً ، لم يدع مناسبة أو داعياً لتعميق أذهان الأطفال إلا انتهزه ، سواء أكان ذلك بشرح القانون ، أم بتحديد أوجه الخلاف أم بالتحقيق والمداولة . وازداد التلاميذ استنارة من الوجهة [illegible] ، وأصبح هو كبير الرجاء في أن ينفعهم هذا في الحياة العامة .

[illegible] هؤلاء المستنيرون من مواطني [illegible] في الشعور بواجباتهم ، فجعل المشرع [illegible] سلطانه رويداً رويداً ، وتشتد على النقيض من ذلك سلطة التلاميذ شيئاً فشيئاً . فهم الذين يسنون القانون . ولما أصبحوا في موقف يقدرون على التخلص منه تغالبوا أخيراً على تشريعه ، وعمدوا إلى [illegible] ، وفقد المدرس هيبته ، وازدادت الفوضى ، وذهب شغف التلاميذ بالدرس ، وقلت علومهم ، واضطر إرون ستيفن إلى التفكير في قوانين أخرى تحد من هذا الشر ، وقدمها كما يجب إلى الهيئة الدستورية لتبحثها وتوافق عليها ، لكنها رفضتها بإجماع الآراء من دون مناقشة . وقد أغضبه هذا قليلاً ، لكنه رأى أنه لا معدى عن الصبر على شيء من الفوضى ، والرضا بشيء من التضحية في سبيل غرض سام كالرشد السياسي والحرية السياسية . غير أن الشر جعل يستفحل يوماً عن يوم ، وتفاقم الأمر إلى حد أن قام من بين التلاميذ من يزعمون أنفسهم حزباً ، ويسيطرون

فى نفسية المدرسة ورأيها . وإذ كان هؤلاء نخبة التلاميذ وأوسعهم حيلة ، فقد جعلوا من كثرة الأولاد معارضين للمدرس ومناهضين لاقتراحه ، إذ كان بينهم مذاب رأيه من دون تحقيق . أما الحرس الذى لا يألف أمثالهم ولا اشتراطاً معهم فيهمونه ويحكمون عليه . ولم يكن يتيح لإرن سليفن وهو منفذ الأحكام أن يفعل شيئاً لمناهضة ذلك سوى تخفيف العقوبة المحكوم بها . فإذا فعل ذلك تولى القضاة استكمال النقص من المحكوم عليه فى خارج المدرسة .

وقد قدر المدرس أن يجير عاجلا ماهو شر من ذلك . فالاجراء الذى كان يخول التلاميذ الاشتراك فى التشريع سرعان ما اتخذ للاستبداد بالتشريع . فقد دعا الزعيمون الناشئون مواطنيهم إلى النظر فى أن عطلة يومين فى الاسبوع بعد الظهر لا تكفى ، وبخاصة فى الفصل الموموق من فصول السنة — فى الفصل الذى يزكو القمح ويحلو الفرع هواؤه الطلق أكثر مما تواتيه حجرات المدرسة المختنقة . ومن ثم تقرر بإجماع الآراء اتخاذ الاثنين يوماً للعطلة الأسبوعية يقضى فيه فى حقل التوت ، كلهم من دون استثناء ، ومن يتخلف يعاقب أشد عقاب . وقد حدث هذا فعلا ، وزعم كل فى نفسه أن حضرة المدرس هو الذى أجاز ذلك .

وألفى إرن سليفن نفسه وحده فتولاه شىء من الارتباك ، وجعل ينظر إلى الساعة كرة بعد أخرى ، وجعل يطل الحين بعد الحين من النافذة ، فلم يأت أحد ولم يرف أحد فى الحى . وخرج أخيرا يبحث ويتحرى فسمع ما وقع . فذهب إلى حقل التوت ، وبعد أن ألقى على الأولاد موعظة صارمة جرح فيها مسلكهم المتعنت وعملهم الذى لا يليق بمواطن دستورى ، أعلن إليهم فى نفس الوقت أنه مضطر للأسف إلى معاقبتهم العقاب الرادع . فرد عليه الزعيمون الناشئون قائلين : إن له أن ينطق بما يشاء من عقاب ، لكن لهم بحكم الدستور أن يأخذوا فى عقابه الرأى . فأدرك إرن سليفن أنه لن يبلغ غايته بهذه الواسطة ،

وتحول إلى الرجاء والحث . فقرر خليق بهم أن يستوا استعمال الحرية التى وهبهم إياها بمحض إرادته ومن تلقاء نفسه ، وأن عليهم أن يفكروا فى الضرر الذى يلحقهم ، والسوء الذى يصيب الدستور نفسه إذا صح مقاس الرأى ذا ريع . — فضحك الأولاد منه ، وسخروا من قوله . وكانت مطالبهم من الخبث بحيث استفاضت وانتشرت رائحتها . فلمى الخبر إلى المفتش فحقق وتحرى الأسباب ، وهو عطلة إرن سليفن وتعقب أصولها . وإذ كان التلاميذ قد رأيهم كل احترام لمدرستهم لم يجد المحقق مندوحة عن التخلى عن المدرس الدستورى وإحالته إلى المعاش مراعاة لحالته الصحية .

محمود الدسوقى

مع المؤلفين الفلسطينيين

عودة السفينة

الدكتور إسحاق موسى الحسيني

أخي الدكتور الأديب .

إنك لتذكر يوم أصدرت كتابك السابق « مذكرات دجاجة » أنني كتبت إليك أثني على ما في أقوالك ودجاجتك من حكمة ، وما في آرائها من نضج ، وما في تحاليلها من عمق ، وما في مبادئها من نبل وروحانية ، فقد قلت في ذلك الكتاب ما يستحقه ، وأثنيت عليه بما هو أهله .

وها أنت ذا اليوم تصدر كتابك الجديد « عودة السفينة » ، فأرجو أن يتسع صدرك لما آخذه عليه من ملاحظات ، وأنت تعلم أن الكتاب الذي [illegible] النقد » هو الكتاب الذي « [illegible] ، وأن الكتاب الذي لا يستطيع الناقد أن [illegible] لم يخلق بعد ولن يخلق أبداً . إني أرجو أن أكون صريحاً كل الصراحة في نقدي ، وإني لواثق أن صراحتي ستسرك لأنك تحب « النقد » وتنفر من « المجاملات » الأدبية السخيفة . وما كان النقد قط ليهدم المنقود ، ولكنه الوسيلة الوحيدة التي تظهر بها القيم الحقيقية للكتب ، وهو الوسيلة الوحيدة التي تخلد بها الكتب التي تستحق الخلود .

إن النية في تأليف كتابك طيبة كل الطيبة ، والغاية سامية كل السمو . فالكتاب يهدف إلى خلق جيل واع وعياً قومياً صحيحاً ، ويركز على الفهم السليم لشؤون الحياة والمجتمع . والدروس التي في الكتاب غالية تستحق أن تقرأ باهتمام ، وأن تطبق على حياتنا اليومية . غير أني لا أجد بداً من القول إن الطريقة التي كتبت بها فصول الكتاب هي طريقة « قديمة » ، أو على الأصح « غير عصرية » وغير مشوقة . هي طريقة « وعظ وإرشاد » لا طريقة تأليف كتاب أدبي واجتماعي . ولست أشك في أنك تعرف — كما أعرف أنا ويعرف الجميع — أن القارئ المصري قد يلتفت بالكبرياء والغرور أن مل طريقة الوعظ في التآليف الأدبية ، وأصبح يكره أن تخاطبه بألفاظ : « يجب » ، و« ينبغي » ، و« حبذا » وما إليها ؛ أو أن تخاطبه بصيغة فعل الأمر ؛ وهو في حاجة إلى الأسلوب الأدبي البارع ، الذي يشوقه إلى المطالعة ، وفي الوقت نفسه يغرس في نفسه الأثر الذي يريده المؤلف ، ولكن عن طريق التلميح لا التصريح ، تماماً كما فعلت يا دكتور في « مذكرات دجاجة » . أما في « عودة السفينة » فالأسلوب الشيق مفقود ، وطريقة التلميح للأثر مفقودة ، وذلك [illegible] في أسلوب الكتاب كثيراً من [illegible] في الأداء .

[illegible] ، ومن أن العنوان لا ينطبق على [illegible] ؛ فإن « عودة السفينة » أجدر [illegible] مجموعة شعرية ، كما رأيت في « عودة الملاح التائه » للأستاذ علي محمود طه . وأحسن من ذلك وأقرب إلى المعقول أن يكون عنواناً لقصة كاملة ، أو لمجموعة أقاصيص مكتوبة في غرض معين . ذلك ما يتبادر إلى ذهن قارئ هذا العنوان لأول وهلة ، ولذلك يشعر بصدمة عنيفة حين يطلع عليه ثم يجد هذا العنوان « الشعري » أو « القصصي » الخلاب يجمع تحته طائفة من الفصول الاجتماعية مكتوبة على طريقة « وعظية » تكاد الحياة تتسرب من بين سطورها لولا ما يلاحظه القارئ من حرارة إيمان المؤلف بهذه المواعظ ، وإخلاصه في خدمة أمته بهذه الفصول التي أرادها أن تكون تمهيداً لحياة نشيطة ناهضة لأمته وبلاده .

هذا من حيث الغرض والعنوان ، فإذا أخذنا الكتاب على حالته الراهنة ، وتجاهلنا الطريقة التي كتب بها ، وجدنا

أنه كتاب نافع ولازم لتوضيح الطريق أمامنا في مسيرنا المضطرب في معترك هذه الحياة التي لا ينجح فيها إلا من يسير على هدى ويقين وثبات ؛ ووجدنا فيه كثيراً من الآراء الناضجة القيمة ، التي يحببها إلينا أنها مكتوبة بإخلاص ، وبعد كثير من التعصب الأعمى لتقاليد أو أوضاع معينة ، بغير تمحيص لتلك التقاليد والأوضاع ، ومكتوبة كذلك بصراحة تستحق الإعجاب والتشجيع .

ففي فصل « المرأة » (ص ٢٨ وما يليها) ، خرجت سيدتي على اعتقاد الجماهير وتقاليدهم ، وقد نددت بصراحة بعادة المرأة الساذجة ، وطالبت لها بمثل مركز أختها الغربية . وليس في هذا شيء من الغرابة ، بل ليس فيه شيء من الجدة ، ولكن الجديد الجريء فيه — وهي امرأة في زمانها وفي مكانها — أن تطالب إخوانك الشرقيين أن يخرجوا المرأة الشرقية من حجابها إلى ميدان المدنية [illegible] قسمها الكاملة في تحمل الخدمات ، و [illegible] الأمة ، مثل الأمة كلها ؛ فهنا [illegible] في الحرب العالمية الأخيرة ، وقد عملت المرأة الغربية في الماضي ما يشبهه . ولكن أين هي اليوم مما كانت ؟

إنك تستحقين الثناء العاطر على هذه المرأة الجديدة ، كما تستحقين الثناء على الكثير مما أبديته من آراء في فصول الكتاب القيمة . وفي الواقع أن فصل « المرأة » ليس بأجمل ما في هذا الكتاب ، أو على الأصح ، ليست آراؤك فيه بأكثر سداداً ونضجاً وتوفيقاً منها في الفصول الباقية ، فقد تجد في كل فصل شيئاً من الآراء الرشيدة النافعة ؛ ولذلك لا أرى حاجة إلى بيان هذا مفصلاً ، لأن المجال أضيق من أن يتسع لهذا التفصيل ، ولكني لا أرى بداً من أن أذكر أن أقوى فصول الكتاب هي الفصول التالية : الجموع قبل الفرد ، التشاؤم ، إيمان .

ثم إني أراني مضطراً إلى الإشارة إلى نقاط غير واضحة تماماً ، أو تحتاج إلى تعليق أو مناقشة ؛ مثال ذلك قولكم في ص ١٨ : « ولا نعرف أدباً أوسع أفقاً وأكثر انطلاقاً من الأدب الغربي » . فالعبارة يبدو فيها غموض كثير ؛ فمثلاً هل تقصدون « بالأدب الغربي » الأدب الحديث أم القديم أم كليهما معاً ؟ ثم ما هو المقصود تماماً « بسعة الأفق وكثرة الانطلاق » ؟ إني لا أستطيع أن أقول شيئاً قبل أن أقف على تفسيركم لهذه العبارة ، وعلى البراهين التي تثبت صحة رأيكم . وسيكون من دواعي فخرنا أن تستطيع ، دكتورة الفضلى ، إثبات الفضل لأدبنا العربي ، فنعرض خطر رأيكم في هذا الموضوع .

ثم هناك لفظة « الركب » ، ولفظة « السفينة » ، قد وردتا مرات كثيرة في غير مواضعهما . مثال ذلك قولكم في ص ١٥ : « وهكذا يستطيع المرء أن يجد ... أن من [illegible] السفينة ليسوا موثوقي الأيدي والأرجل ، كما يذهب [illegible] ، وكذلك قولكم في ص ١٨ : « وبعد ملقا [illegible] سطو ؟ ! » . فلفظة « الركب » هنا [illegible] ليس فيما قبلها أو ما بعدها من [illegible] بينهما لفظة واحدة تشير إلى « سفينة » أو إلى أي شيء يحتاج إلى « ركب » ، ولولا أن عنوان الكتاب كله « عودة السفينة » ، وهو عنوان غير قريب من هاتين العبارتين ، فقد انقطعت الصلة به في نهاية الفصل الثاني .

وكذلك قولكم في ص ٣٤ : « لا إيمان لي بكون أمة ولن تخرج السفينة إلى شاطئ السلامة ، إلا إذا مارست المرأة حقوقها الطبيعية كاملة الخ » . فأنت ترى أن عبارة « ولن تخرج السفينة إلى الشاطئ » ثقيلة وغريبة في مكانها ، وقد تكررت العبارة نفسها في الصفحات التالية : ٤٤ ، ٥٥ ، ٦٤ . وكأني بك قد لاحظت أن العنوان بعيد عن هذه الفصول ، وأنه غير لائق بها ، ولكنك تريده ، وأنت به كلفة ، فلذلك تضطرين إلى تذكير القارئ بملاءمة الكتاب عنوانه ، بواسطة ترديد لفظة « السفينة » أو « الركب » وما إليهما ...

ثم هناك في فصل « التعليم » جداول تقريبية المؤلفات العربية التي ظهرت في فلسطين . وفي الجدول الأول ذكرتم الأرقام التي تعتقدون أنها صحيحة ، ولكنكم لم تضعوا أي رقم إلى جانب عام ١٩٤٥ ، وقد كان الأفضل أن تذكروا عدد الكتب التي صدرت حتى بداية الشهر الماضي — آب ١٩٤٥ — ، وليس في هذا شيء من الصعوبة .

وفي الجدول الثاني ذكرتم أن عدد الكتب « الدينية » التي ظهرت عام ١٩٣٨ كتاب واحد ، وأنه لم يصدر أي كتاب « ديني » عام ١٩٣٩ . فاذا كان المقصود بالدين هو الدين الإسلامي وحده ، فقد يكون ذلك صحيحاً . أما إذا كانت لفظة « الدين » تشمل الدين المسيحي أيضاً ، فأعتقد أن الإحصاء بعيد جداً عن الصواب ، ولعل دائرة المعارف وحدها لا تستطيع أن تعطيكم العلم اليقين في هذا الباب .

أخيراً يا سيدي هناك ملاحظة كان يجب أن أقدمها على سائر ملاحظاتي هذه ، وهي [illegible] جداً عند المقارنة بين « مذكرات دجاجة » [illegible] « [illegible] المتقية » ؛ فالكتاب الأول تحمل فيه « نزعة إنسانية شاملة » لا تتقيد بأي الحدود : حدود الوطنية ، وحدود العنصرية ، وحدود الدين ، وحدود العاطفة الضيقة . وهذه النزعة الشاملة هي التي منحت ذلك الكتاب الرائع الفوز بالجائزة الأولى في مباراة سلسلة « اقرأ » الأولى . وأما الكتاب الثاني ، فيكاد يعاكس الأول تماماً ، فهو العنصرية الضيقة والوطنية الضيقة ، والعاطفة القومية الضيقة . فكيف جاز أن تكون الدعوة إلى « المثالية » أسبق من الدعوة إلى « الوطنية والقومية » ؟ .

أقول هذا وأنا أعلم أن « الوطنية الضيقة » هي الخطوة الأولى التي يجب أن تسبق « المثالية » ، فقبل أن نفكر في « الإنسانية العامة » يجب أن يكون لنا من السلطان والمكانة الدولية ما يؤهلنا لأن نشارك في خدمة هذه الإنسانية العامة ، ويقبح أن يكون لنا كيان ضئيل ، لا نستطيع أن نقوم بأي عمل للمساهمة في تحقيق حلم الإنسانية الأكبر .

وأختم هذه الكلمة بالتقدير الخالص لآرائك القيمة ، ولإخلاصك في خدمة هذه الأمة المجاهدة .

عيسى إبراهيم الناعوري
كلية ترا سانطا — القدس



رفاعة يطلب العلم في باريس

— ٢ —

وفي باريس قضى تلاميذ البعثة جميعاً نحو سنة وهم يقيمون معاً في بيت واحد، ويشتركون معاً في دراسة مواد واحدة. يقول رفاعة: « كنا نقرأ في الصباح كتاب تاريخ ساعتين، ثم بعد الغذاء تعلم درس كتابة ومحاطات ومحاورات باللغة الفرنساوية. ثم بعد الظهر درس رسم، ثم درس نحو فرنساوي، وفي كل جمعة ثلاثة دروس من علمي الحساب والهندسة... »

وكانت هذه الخطة ترمي إلى عزل تلاميذ البعثة حتى لا يفسدهم الاختلاط أو الحياة في باريس، وحتى يقصرون الوقت على دراساتهم ليحصلوا العلوم التي يريدون على أحسن وجه، وفي أسرع وقت، ولكن مهمتهم [illegible] فرنسيها مودعة في بطون المؤلفات الفرنسية، ولا سبيل إليها إلا بإتقان هذه اللغة حديثاً وقراءة وفهماً، ولا سبيل إلى هذا الاتقان إلا أن يختلط هؤلاء الشبان بأندادهم من الفرنسيين حتى تستقيم ألسنتهم.

أحس هذا النقص المشرفون على البعثة، كما أحس به أعضاء البعثة أنفسهم. يقول رفاعة: « مكثنا جميعاً في بيت واحد دون سنة نقرأ معاً في اللغة الفرنسية، وفي هذه الفنون المتقدمة، ولكن لم يحصل لنا عظيم مزية إلا مجرد تعلم النحو الفرنساوي... »

لهذا صدرت الأوامر بتوزيع هؤلاء المبعوثين « فتفرقوا في مكاتب متعددة، كل اثنين أو ثلاثة أو واحد... في مكتب مع أولاد الفرنساوية أو في بيت مخصوص عند معلم مخصوص بقدر معلوم من الدراهم في نظير الأكل والشرب والسكنى والتعليم ». وفي هذه المكاتب أو « البنسيونات » كان التلاميذ المصريون يقضون أيامهم ونهارهم في التحصيل، ولم يكن يسمح لهم بالخروج إلا في يوم الأحد، أو بعد ظهر الخميس، أو في الأعياد الفرنسية، وكان يحدث أحياناً أن يخرج بعضهم بعد العشاء إذا لم يكن يشغله درس أو واجب.

وكان رفاعة أكثرهم اهتماماً في عمله، وأشدهم إقبالاً عليه، ولم تكن تسعفه أوقات فراغه في النهار، فكان يقضي معظم ساعات الليل ساهراً بين كتبه ودروسه، يقرأ ويتفهم ويترجم حتى أصيبت عينه اليسرى بضعف، ونصحه الطبيب بالراحة، ونهاه عن المطالعة في الليل ولكنه « لم يمتثل لخوف تعويق التعلم ».

ولم يقنع رفاعة بالكتب التي تشترى له على حساب البعثة، فقد أحس قلة الفرصة، وأقبل يشتري كتباً أخرى من ماله الخاص، ثم أحس أن دروس أساتذته [illegible] لإشباع نهمه، فاستأجر معلماً خاصاً ظل يدرس له أكثر من سنة، وكان يدفع له أجره من مرتبه الخاص [illegible] ليكون إماماً للبعثة، ولكنه [illegible] صدرت في آخر لحظة أن يسمح له [illegible] الفرنسية، ومن أجل [illegible] وفق طليوجه إلى إتقان الترجمة، وذلك لأن ثقافته الأزهرية في اللغة العربية ترشحه لهذا العمل إذا ألم باللغة الفرنسية وأتقنها، وهذا مجال واسع عريض لأنه غير محدود، فحكومة محمد علي كانت مقبلة على الترجمة في كل علم وفن: في الهندسة والطب، والفنون العسكرية، والتاريخ والجغرافية... الخ، فواجب رفاعة إذاً أن يقرأ كتباً في كل هذه العلوم، وأن يمرن على الترجمة فيها جميعاً، وياله من واجب شاق!!، ولكن همة رفاعة كانت همة عالية لا يتسرب إليها الضعف، فأقبل ووفق.

وقد ذكر رفاعة في رحلته العلوم والفنون التي درسها وبين الكتب التي قرأها، والتي ترجمها، أو بدأ يترجمها وهو في باريس، ومنها نلحظ أن ثقافته كانت موسوعية، فقد قرأ كتباً كثيرة في مختلف العلوم مع أساتذته ثم قرأ كتباً كثيرة أخرى وحده، وبرهن بهذا على أنه

كان يتمتع بروح علمية خصبة ، ولا عجب فقد ساعد على تزويده بهذه الروح أمور أربعة : الزاد الذي اكتسبه وهو طالب العلم في الأزهر ، والنفحة التي أسداها عليه أستاذه العطار ، وحبه المعجب للعلم وشغفه بالتحصيل ، ثم نفسه العالية الطموح ورغبته في إشباع هذه النفس وإرضاء ذاته وبأن النهضة الجديدة في مصر ، وفي النعيم محمد علي .

وكان هناك عامل أو حافز آخر بعث رفاعة على الجد والاجتهاد لا يقل عن العوامل السابقة إن لم يكن أقوى منها ؛ ذلك أن رفاعة درس دراسة دينية في أكبر جامعة دينية ، ثم تخرج عالما دينيا ، وكان تلميذا للشيخ الأزهر ، كما كان قوي الإيمان ، متين العقيدة ، وقد راعه منذ اللحظة الأولى الفارق الكبير بين ما كانت تتمتع به دول المسيحية من تقدم في مختلف نواحي الحياة وبين ما كانت تتمتع به مصر وبلاد الإسلام من تأخر [illegible] نواحي الحياة ، وخاصة الناحية العلمية ، [illegible] بهذه المقارنات ، لهذا نحس في جهوده التي [illegible] ما كان يفرغ من قراءة كتاب في أي علم أو فن حتى يقبل على ترجمته ، ويود بذلك أن ينقل لبلاد الإسلام وبنيه هذا العلم الجديد ، علّه يدفعهم إلى نهضة جديدة تنتهي بهم إلى أن يكونوا كأبناء المسيحية حضارة ورقيا .

ولكن أنى له الوقت لترجمة هذه الكتب جميعا !! ومع هذا فقد بدأ وترجم كتبا ، أو رسالات صغيرة ، ثم ترجم فصولا من الكتب الكبيرة ، وكأني به قد ترك الباقي حتى يعود لمصر ، فيتم ما بدأ ؛ وقد فعل ، ولكن جهده جهد إنساني محدود ، ووقته وقت محدود ، وهنا ترقب الفرص حتى سنحت له فعرض على محمد علي مشروعه لإنشاء مدرسة الألسن ؛ وقد أنشئت ، واتسعت بعد إنشائها حركة الترجمة ، واستطاع رفاعة أن يحقق بعض آماله ، ويؤيدنا في رأينا هذا أن معظم الكتب الأولى التي ترجمها خريجو الألسن هي الكتب التي قرأها رفاعة في باريس ، والتي كان يتمنى أن يترجمها بنفسه .

والآن إني أحسن من أن ننقل هنا تقرير رفاعة نفسه عن الكتب التي قرأها ، وعن جهوده في الدراسة والترجمة وهو في باريس ، قال في رحلته : في التاريخ : « ابتدأنا في بيت الأفندية حين كنا بها بكتاب سير فلاسفة اليونان فقرأناه وعقدناه ، ثم ابتدأنا بعده في كتاب تاريخ عام مختصر مشتمل على سير قدماء المصريين والعراقيين وأهل الشام واليونان وقدماء العجم والرومانيين والهنود وفي آخره نبذة مختصرة في علم الميثولوجيا ، يعني جاهلية اليونان وخرافاتهم ، ثم قرأت عند مسيو شواليه كتابا يسمى لطائف التاريخ يتضمن قصصا وحكايات ونوادر ، ثم بعد قرأت كتابا يسمى سير أخلاق الأمم وعوائدهم وآدابهم ، ثم تاريخ سبب عظم دولة قياصرة الروم [illegible] كتاب رحلة أنخرسيس الأصغر إلى بلاد اليونان [illegible] ثم قرأت كتاب « سيغور » في التاريخ العام ، [illegible] ثم كتابا في علم التواريخ والأنساب ، ثم كتابا يسمى « بانوراما العالم » يعني مرآة الدنيا ، ثم رحلة صنفها بعض المسافرين في بلاد الدولة العثمانية ، ثم رحلة في بلاد الجزائر ... » .

في الرياضيات : « وقرأت في الحساب كتاب « بزوت Bezout » وفي الهندسة الأربع مقالات الأول من كتاب « لوجندر Legendre » .

في الجغرافيا : « وقرأت مع مسيو شواليه كتاب جغرافية يشتمل على الجغرافية التاريخية والطبيعية والرياضية والسياسية ، ثم قرأت رسالة أخرى في الجغرافية الطبيعية مقدمة القاموس في الجغرافية يعني معجم البلدان ، ثم قرأت الكتاب الأول بعينه مع معلم آخر غير مسيو شواليه ، وقرأت أيضا مع مسيو شواليه جملا عظيمة من جغرافية ملطبرون ، ورسالة ألفها المعلم [illegible] في هيئة الدنيا ،

الطب قديماً وحديثاً

تقدم الطب خطوات متتابعة ، شأنه في ذلك شأن بقية العلوم ، ولكن الطب يفوق غيره ، لما له من صلة مباشرة بالإنسان ، فهو المتحكم في صحته وقوته ، فلا غرابة في أن يوجه علماء الطب كل ما أوتوا من تفكير ومن جهد في سبيل تقدمه ، بل في سبيل التغلب على ما يهدد العالم من أمراض كانت فيما مضى خطراً يلقي الرعب في قلوب البشر كوحش ضار يفتك بمن يلقاه ، فإذا به الآن وقد أصبح بعد تقدم فن الطب مكبلاً بالسلاسل والأغلال .

وقد كان الإنسان فيما مضى يعيش في الغابات والكهوف شأنه في ذلك شأن الحيوان الأعجم ، ثم أخذ بعد ذلك يتطور ويترقى فظهرت فيه الحياة الاجتماعية ، التي بعثت طبيعة الإنسان وحبه للاجتماع ببني جنسه . ومن البديهي أن الأمراض وجدت منذ بدء الخليقة ، ولكن ليس من السهل أن يتتبعها الإنسان منذ النشأة الأولى إلى ما كان يكتب في العصور القديمة أو ينقش على الأحجار ، على أننا نجد أنه قد عثر في ورقات البابيروس في جثث قدماء المصريين مما يدل على انتشار الأمراض وشدة فتكها من أقدم العصور .

ولعل أول خطوة خطاها الطب كانت إقامة المستشفيات ومن الطبيعي أن فكرة إنشائها لم تظهر طفرة واحدة . وأول ما عرف من تاريخها أن الرومان انتشرت في بلادهم أمراض هددتهم بالفناء ، فأرسلوا إلى اليونان يستنجدون بإله الطب ، ولما لم يقصدوا إغراءه ، فبنوا له معبداً ، يؤمه المرضى يطلبون فيه الشفاء ، فلاذوا بجواره علّه ينقذهم مما يصيبهم . وتوجهوا إليه في البداية متعبدين . ولم يلبثوا أن جاء الامبراطور Claudius عام ٤١ ميلادية فحول هذا المعبد إلى مأوى لفقراء المرضى ، وقلده ما اتبع مثله هذا الحاكم ، فشيد مأوى بعد آخر . ولم يكتف بذلك بل أوفد إلى هذه الأمكنة من موظفيه ، من قاموا بحراسة المرضى ورعايتهم دون مقابل ، وربما ساعد على ذلك أن الموظفين والموظفات اتخذوا هذا العمل جزءاً من واجبهم الديني .

بعد ذلك تطورت هذه الأماكن فاستخدمت لعزل المرضى ومنعهم من الاختلاط بغيرهم ، وظهرت بعد ذلك فكرة الكرنتينات وكان ذلك عام ١٣٤٨ ، وكان إنشاء هذه الكرنتينات في الموانئ ، إذ استخدموها لعزل المرضى مدة معينة حتى يتم شفاؤهم .

وقد ظل الإنسان طول هذه المدة لا يعلم شيئاً عن شيء يتصل بجسمه أو بمعرفة تركيبه مثلاً ، فظل جسمه بمأمن من مبضع الطبيب ، ولم يجرؤ على المس بجسمه إلا الحلاق . فكان الطبيب يشير إلى موضع الداء ، ويقوم الحلاق بالعملية الجراحية . وظل الحال كذلك حتى عام ١٥٣٦ إذ قام الطبيب Paré [illegible] الناس وقف النزف ويداوي الجروح ، [illegible] عمليات جراحية كما قاموا بتركيب أعضاء صناعية للأذرع والأرجل والأعين .

وبعد أن تجرأ الطبيب على جسم الإنسان ، وفتح جلده والوصول إلى ما تحته وهو حي ، لم يجد غضاضة في أن يحاول التعرف على دقائق أحشائه بعد مماته ، كما فعل في الوحوش التي عرف تركيبها وتشريحها من قبل ، ثم أخذ يواصل دراستها التشريحية المقارنة ، فها هو الآن يشرح جسم الإنسان . وأول من قام بذلك هو الطبيب Varsalius الذي أخذ يشرح الجسم جزءاً جزءاً ، وإلى جانبه فنان يرسم ما يشرحه ، وبعد عام ونصف ، قضاها هذا الرجل في عمل مضن وبعد أن صار عمله معداً للطبع والنشر إذا به يواجه بالاعتراض ، من الغني ومن الفقير ، ومن العالم ومن الجاهل ، فلم يلبث أن جمع ذلك في نفسه فقام على مصوراته فأحرقها ، وسخر منه الناس ولم يعترف بفضله إلا بعد وفاته .

وقد لاحظ الأطباء أن كثيراً من الأمراض مصحوبها

ارتفاع في حرارة الجسم . ولما أدركوا أخطاءهم في تقدير حرارة الجسم عند ما اعتمدوا على قياسها باللمس أخذوا يفكرون في طريقة أخرى عملية مضمونة لقياسها ، وكان أول من وصل إلى ذلك الطبيب Sanctorius ، إذ استخدم أنبوبة ملتوية ، مفتوحة من أحد طرفيها ، وبالطرف الآخر انتفاخ . ويستخدم هذا الجهاز بوضع الانتفاخ في فم المريض بينما ينكس الطرف المفتوح في الماء ، فإذا ما تمدد الغاز في الجهاز خرج من الفتحة المنكسة ، وإذا ما وقف خروج الغاز ، أخرج الانتفاخ من فم المريض ، بينما يبقى الطرف المنكس في الماء . فإذا ما برد الجهاز ، انكمش الهواء داخل الجهاز فارتفع الماء في الأنبوبة المنكسة ، وقد وجد أن حرارة المريض تتناسب مع ارتفاع الماء في الأنبوبة . وكان لهذا الطبيب كذلك الفضل في قياس نبض المريض ، وذلك باستخدام بندول ذي سعة ثابتة تقوم مقام الساعة [illegible] والدقائق والتي لم تكن قد عرفت بعد .

وفي عام ١٦١٨ خطا الطب خطوة أخرى [illegible] حركة الدم . وقد كان المعتقد قبل ذلك أن الكبد مركز الدم ، أما القلب فكان في زعمهم عضلة مسخنة له ، وأما الرئتان فتقومان بتهويته ، وجاء الطبيب William Harvey فتمكن من ربط أوردة الذراع فانتفخ ودل ذلك على أن الدم ينتقل في الأوردة إلى القلب وقد نشر في نفس السنة (١٦٢٨) كتاباً من دورة الدم .

هذا ما كان من أمر تقدم الطب باستخدام العين المجردة . أما التقدم الذي يحتاج إلى معرفة التركيب الدقيق فقد تأخر ، لأن هذه التراكيب الدقيقة ظلت مجهولة حتى ظهر الميكروسكوب ، فتمكن الطبيب الإيطالي ملبيجي من معرفة الشعيرات الدموية والأنابيب الكلوية المسماة باسم ملبيجي وقد كان ذلك عام ١٦٦١

ولقد ظل المريض طول هذه القرون والأجيال ، يعاني ما يعانيه إن احتاج إلى عملية يجريها ، فكانوا يشدون وثاقه ، ويسلطون عليه الأقوياء من الرجال ليقاوموا كل حركة يتحركها ، حتى بعث الله الإنسانية من يخلصها من هذا الألم المضني ، إذ فكر طبيب الأسنان William Marton سنة ١٨٤٦ ، (بعد أن جرب خلع الضرس بدون ألم بتخديره بالأثير) فكر في تخدير المريض قبل أن تجرى له عملية جراحية ، من العمليات التي تحتاج إلى وقت طويل . وقد تقدم إلى الجراح Warren أحد مستشفيات أمريكا مقترحاً عليه ذلك ، فأجابه إلى رغبته ولم يلبث أن أخذ المريض ومن حوله رجال أشداء استعدوا للصراع والتكبيل إذا ما فشل التخدير ، وبعد فترة قصيرة همد جسم المريض فأجريت له العملية دون مقاومة .

وهكذا تقدم علم الجراحة خطوة بعد أخرى ، من قيام الطبيب بالعمليات الجراحية السطحية إلى معرفته بتركيب جسم الإنسان إلى إجراء عمليات تتطلب الوصول إلى أحشاء الجسم إلى تيسير إجراء العمليات بالتخدير ، كل ذلك أدى [illegible] إلى نجاح كبير يتلوه نجاح أكبر . على [illegible] ظل يهدد الإنسان بالوفاة ، إذ رغم مهارة الجراح ، وعدم استخدام المخدرات ، كان يلاحظ في كثير من الحالات تقيح الجروح وارتفاع درجة حرارة المريض ، وسرعان ما يتسمم الجسم وتحدث الوفاة . وقد بقي الجراح حائراً في أمره حتى جاء باستور وقام بتجاربه على التخمر والتعفن ، فخطر للطبيب Joseph Lister من جراحي جلاسجو عام ١٨٦٠ أن يعقم أدواته الجراحية بغسلها بحمض الكربوليك كما رش الغرفة برذاذ من هذا الحمض ، ولم يكتف بذلك ، بل عقم الجروح ، فلاحظ نجاة نسبة كبيرة من المرضى ، كما ساعد التعقيم على سهولة التئام الجروح .

ومن الأجهزة التي كان لها أكبر الأثر في تقدم الطب الجراحي ، جهاز الأشعة السينية . وقد اكتشف هذه الأشعة الطبيب Roentgen عام ١٨٩٥ بينما كان يجرب ويبحث في غرفة مظلمة ، إذ تبين له أن هناك نوعاً من الأشعة ينفذ خلال أنسجة الجسم ، ولكنها تختفي في العظام

فى العربة ...

إلى الحسناء الجميلة التى ركبت معها العربة
فى الطريق الطويل من ... إلى ...

ركبتها فعقدت أنسى إليها ... وتهادت ونحن فى جانبيها
ومضت تنهب الطريق وعدنا
لا عليه مثل الخيال غليه
لم لا أزدهى ومن جانبى تخ
سى كأن الشموس ملك يديها؟
أشرقت بالجمال فى وجنتيها
وسحر الدلال فى مقلتيها
وعلت كربة الحسن يا أخ
فى فتورا أطل من ناظريها؟

* * *

ومضينا والعيون حوالينا
طاف كأسا ...
فى طريق إسالت الدوح منضو
فى إلينا بالظل تحنو عليها
والنسيم يسيل كالعطر حينا ... ماء النهر وهو يجرى الهوينى

وأصيل كأنه شجن ته
وبالخفى مستعجلا أو بطيئا
وتذكرت ما مضى من فراقى
أين يا قلب ما مضى أين أينا

* * *

قلت : من تى وأجمل الغادات ؟
أنت بشرى أجمل الساعات
يا وليفى يا ملاكى حنانا
إينما فى دنى يغير أشتاتى
أتشعر أن أراك يوما بجنبى
وفؤادى يراك رمزة الحياة
والتقينا والله أعلم أينا
ومضينا فى أعذب الضربات
... النسيم حينا وكالأنف
... ووكالروى الهامسات

* * *

... الذى شا
... مثل أنا أمسى بأنت تحنو
تحنو يجرى كالسهم الصحة الحو
... مسرعا ولم تكن فقط تجرى !
استحقه الشوة العناق ... مثلما راعى الخيال القصيرى
فتمنيت لو أعانقها شوق
قا إليها ولآن تكن أملا صدرى
أمرنى نفسها ... ومضى
تتفانى ، فضاع حبى وأشواقى ؟!

* * *

يا رفاقى ؛ أتذكرون حبيبا
أنت علمته غرام الفراق ؟
كان بالهالك فى حياة ...
حالم بالجمال عشق الأماق

فتظهر هذه الأخيرة على الشاشة البيضاء ، ولم يمض شهر حتى استخدام الطب لهذه الأشعة ، حتى أصبحت وسيلة من أهم الوسائل فى تشخيص كثير من الأمراض مثل أمراض الكلى والعظام وذات الرئة إلى غير ذلك .

والآن وبعد أن انتقلنا من علاج إلى علاج ، ومن كشف وراء آخر ، يصل بنا السير إلى نقطة تحول كبير فى عالم الطب ، وكان ذلك بكشف نوع جديد من المواد ، هى السحر فى سرعة أثرها ، هى البلسم الشافى إذا ما تعذر الشفاء ، وهذه ما سنفرد لها مقالا آخر فى عدد قادم إن شاء الله .

محمد أحمد ...

بين المسموع والمقروء

بطل الجزيرة

لورنس !

أو لورنس جزيرة العرب ، فهكذا تسميه بنو جلدته الإنجليز !.

فهل عرفت من هو ؟

إن كنت لم تعرف ، أو عرفت ثم نسيت ، فاذكر أنه الشاب الذي قضى زهرة شبابه الأولى ، بعد تخرجه من أكسفورد ، يبحث عن كنوز التاريخ حفراً في صحارى سوريا وسواد العراق ، وفي جبال سيناء ورمالها . وضرب في بلاد هذا الشرق الأدنى راجلاً ، واتخذ صحبة من أهله حيناً طويلاً ، فعاش بينهم وراح ، [illegible] وعرف اللغة الخاصة ، ودرس الشرق [illegible] واستحكم العادات .

ودوت المدافع في أوربا تعلن افتتاح الحرب الماضية ، حرب ١٩١٤ . وما لبث أن دوت من المدافع صداها والدوي من الحراب أوارها في تلك الصحارى الشامية التي عرفها لورنس ، وعرف أهلها ، وعمل فيها طويلا .

ودخل الأتراك الحرب إلى جانب الألمان .

وأراد لورنس أن يتطوع للجندية ، وكانت الجندية لا تزال تطوعاً ، فقصر طوله عن طول الجند ، فلم يدخل الجيش . ولكنه وجد عملاً في قسم الجغرافية بوزارة الحربية البريطانية .

وكان كتشنر وزير الحرب عند ذاك ، فبعث به إلى مصر ، فعمل في قسم إدارة المخابرة والاستخبار كان أنشأه الإنجليز في القاهرة .

وعرف الإنجليز أن حكم الأتراك كان ثقيلا على العرب وأنه طال قرونا ، وأن نفوس العرب قد ملت وسئمت وأخذت تطلب الخلاص . وأن حجة بأن هذا الحكم كان ثقيلا على العرب ثقله على الشعب التركي نفسه لم تعد بالحجة التي تقنع وتشفي . عرف الإنجليز ذلك ، وأصبح الترك أعداءهم تخفض إرادتهم ، فلم يكن بد من إثارة العرب على هذا السلف العتيق .

وأخذ لورنس نصيبه وافراً في مفاوضة العرب . وفي عام ١٩١٦ طلب الإذن في الذهاب إلى جدة . فأذنوا له . وكان العرب قد بدأوا يشتبكون بالترك ، فردهم الترك عند المدينة ، أعني مرقد الرسول .

واتصل لورنس بالشريف حسين ، والملك من بعد ذلك ، واتصل بابنه الأمير فيصل ، والملك من بعد ذلك ، وكان [illegible] جميلا . وفي صحبة فيصل كسب ثقته . ومن بعد كسب الثقة استحالة إلى إعادة تنظيم قوته ، [illegible] شمالا وراء المدينة ، وغايته قطع سكة [illegible] الأمير عبد الله ، أخو فيصل ، على رأس قوة العرب يحارب أعداء في الناحية الأخرى . وتركهما لورنس ، وضرب في الصحراء شمالا وراء خطوط العدو ، يؤلب القبائل عليه ، حتى بلغ عقبة [illegible] . ثم عاد على رأس قوة عربية . والتقى بقوة من الأتراك في معان فقتلها عن آخرها ، وشق طريقه بأعرابه إلى العقبة فامتلكها باسم فيصل .

وأخذ من بعد ذلك يسطو على السكة الحديدية ما بين سورية والحجاز ، حتى كاد يعزل المدينة وحاميتها التركية عزلا . وسطا على السكة ما بين دمشق وفلسطين ليقطعها ، فكاد ولم يفعل .

واختمرت الخطط في صيف عام ١٩١٨ ، فسار جيش الجنرال اللنبي ، وسار فيصل بجيشه ، وصحبه لورنس ، فانكسر الأتراك في شرق الأردن . وسبق فيصل الإنجليز إلى دمشق فدخلها قبل وصولهم بساعات . وتولى لورنس على

ما يروي الإنجليز أمور المدينة حتى خلفه قائده الأكبر.

وكانت أداة لورنس في كل هذا علمه بالعرب لساناً وعيشاً وآمالاً، ثم المواعيد يبذلها لهم بذلاً سخياً.

وكانت مواعيد للحرية، للخلاص.

فلما حان الوقت لتحقيق هذه الوعود، وجد العرب أن باذل الوعد بالعطاء، غير من في مكنته بذل العطاء، وذكروا بتلك المواعيد أبيات المتنبي في كافور الأخشيد.

ماذا لقيت من الدنيا وأعجبه
أني بما أنا باكٍ منه محسود
أمسيت أروح مثرٍ خازناً ويداً
أنا الغني وأموالي المواعيد
جود الرجال من الأيدي وجودهم
من اللسان فلا كانوا ولا الجود

وعظم قدر لورنس من بعد ذلك في أمته، ودارت عنه الأقاويل، وشاعت عنه أقاصيص، وخلقت حوله هالة [illegible] أسبغ عليها [illegible] نادراً من تلك الأقدار التي [illegible] من الرجال إلا مرة واحدة في القرن الواحد.

ولعبه على مسرح الشرق، بين الأقوام المتصاحبة، وأعطية الرأي المتناقة. والشرق عند الغرب في أمثال هذا فتنة لم يقو على محوها مر الزمان.

أما العرب القريبون فنظروا إليه نظرة اختلط فيها الكفر بالإيمان، الكفر بحاضره، والإيمان بماضيه. وفتشوا قلوبهم فما كادوا يصدقون أن رجلاً كان أمسه فيهم ما كان، وكانت عشرته لهم ما كانت، وصدقه فيهم ما جربوا، وحبه إياهم ما أحسوا، وتراميه على الأخطار في طلبها الموت ما عرفوا — ما كادوا يصدقون أن رجلاً هذه سيرته فيهم يكون إلا أمرها خدعة متواصلة، ورواية مثلها فما زال [illegible] واحدة في تمثيلها على اتصال أيامها ولياليها.

وأما العرب البعيدون فسمعوا عن مغامرات هذا الرجل في غير حرارة كثيرة. وأما أهل مصر فلم يكونوا قد فهموا الثورة العربية، لأنهم كانوا طلقوا ما بينهم وبين الدولة العثمانية في واقع الأمر من زمن بعيد. ولما علموا الذي كان بعد الحرب من خذلان العرب التمسوا الشماتة مزينة بسياقها البحر الأحمر والأبيض، وجبال سيناء، لم تحقق سناء من أهل هذه البقاع لوعة ولا قتل أسفاً.

وعبر لورنس الذي وقع فيه، واصطحب فيصل يطوف به العواصم، يحتج له، ويحتج به، ويدافع، ولكن من يسمع؟ وأين من يجيب.

فقال الرواة إن الرواية لم تكن تمت، فكان لابد لتمامها من هذا الفصل الأخير — تطواف بالعواصم، أراد مؤلف الرواية أن تكون على غير جدوى.

ثم تنتهي حياة لورنس باعتزاله الصاخبة في الحياة، وكانت قد نيطت له مناصب تؤهل له وتنبل، واختار لنفسه مقاعد الجند الأخيرة، وأخذ من الرزق ما جاءه عفواً، وعزف عن المظاهر والمباهج.

و[illegible] كتب قصة العرب معه، وقصته معهم، [illegible] وقبل أن يدفع به إلى المطبعة [illegible] ساعات أمواله [illegible] إلى حجته من جديد يكتب من جديد. فلما أتم الناشر طبعه، خرج إلى السوق، فهز الإنجليز هزة غير يسيرة. واهتز له عالم الأدب أكبر اهتزاز. وأسموه «أعمدة الحكمة السبعة».

وفي يوم من الأيام قرأ الإنجليز ذات صباح أن ت. أ. شو الميكانيكي النفر بسلاح الطيران، بالفند، قتل في حادثة. وما كان هذا إلا لورنس، بطل الجزيرة على ما أشاع الإنجليز!

مضى من الدنيا، وعين أمته فيها.

أما بعد، فهل كان لورنس صديقاً للعرب حقاً ثم خدعوه كما خدعوهم، أم كان غير ذلك؟

الجواب في الأسبوع القادم، يجيبك إياه رب السيف والقلم، ورب السياسة (تشرشل) ويكشف فيه من أمور.

أحمد زكي

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر